التأصيل القرآني لإعلام الطفل

د. صونيا وافق

جامعة الأمير عبد القادر ـ قسنطينة

لم يأت القرآن الكريم بعلوم الدين والدنيا لكنه جعل لها جميعا أصولا فيه حيث ضبط موضوعها وحدّد معالمها. فما من علم يظهر قديما أو حديثا أو يظهر مستقبلا إلا أوجد له مرجعية قرآنية؛ بحيث يصدق فيه قوله تعالى "**ما فرّطنا في الكتاب من شيء...**"[1].

من هنا فإن الحديث عن التأصيل القرآني لإعلام الطفل يجر بالضرورة إلى الحديث عن تلك الرسالة أو ذلك المقصد الأساسي الذي جاء القرآن لتحقيقه.

ثم كيف أن القرآن اهتم بإعلام الطفل ضمن هدف ذاك.

جاء القرآن وهو كلام الله بالرسالة الخاتمة للبشرية جميعا ليخرجها من الظلمات إلى النور من خلال هديه الرباني وشريعته الغراء آخذا بالإنسان بمختلف أساليب التربية إلى هذا المقصد السامي: وهو ما يجده الإنسان وهو يتصفح القرآن الكريم. يقول الشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ "وأحسست للقراءة الأولى أن الكتاب الذي بين يديّ يبدئ ويعيد في قيادة الناس إلى الله، واستثارة مشاعرهم من الأعماق؛ كي يرتبطوا ويتوجهوا إليه، ويستعدّوا للقائه"[2].

من هنا فإن القرآن الكريم جاء للتربية والتهذيب انطلاقا من تصحيح العقيدة وردّها إلى أصلها الأول بعيدا عن التحريف والتشويه وما إلى ذلك.

هذا عن هدى القرآن. فماذا عن ثنائية القرآن والطفل؟

---

[1] الأنعام 38.

[2] المحاور الخمسة للقرآن الكريم الشيخ محمد الغزالي، ص7، دار المعرفة، الجزائر، ط 1999.

لو اعتبر القرآن كتابا، وهو فعلا كذلك مع خصوصية صاحبه؛ فإنه وسيلة إعلامية ذات وزن ـ ولا شك في ذلك ـ وهي وسيلة إعلامية في متناول الجميع: المسلم والكافر، المؤمن والمنافق، المخلص والمبتدع، المرأة والرجل، الكبير والصغير.

ومن ميزات العالم الإسلامي أنه خصّص مدارس لتعليم القرآن للصغار بدءا بتحفيظه إلى تفسير ما تيسّر منه. وهو ما يجعل الطفل يحفظ آياته مع إلمام بسيط بمدلولاته. والعملية لا تدخل في إطار المباح، بل تكتسب طابع المرغوب فيه؛ إذ مما يحاسب المسلم عليه يوم القيامة تقصيره في تعليم ولده القرآن.

وبما أن الأمر كذلك، فإن كل موضوعات القرآن الكريم تكون في متناول الطفل على حداثة سنّه؛ أي من الطفولة الأولى إلى حدود سنّ التكليف: وهو 15 سنة على خلاف بين الفقهاء.

فكيف يتعامل القرآن مع الطفل الذي يتناوله بالحفظ والقراءة والتفسير، بل ويتأثر بما فيه في سلوكاته المختلفة؟

جاءت في القرآن موضوعات مختلفة تتحدّث عن العقيدة والتشريع، والقصص، والآداب والأخلاق وهي تتعاطى مع البالغ والعاقل الذي يفهم مضمون الرسالة الإعلامية. هذا البالغ المكلّف يكون في أغلب الأحيان بالنسبة للطفل الولي من أب أو كافل أو معلّم له وما إلى ذلك.

وهو مطالب بإيصال الرسالة الإعلامية في القرآن لذلك الطفل. وهو ما نجده بشكل صريح ومباشر في موعظة لقمان ولا بأس هنا من تناولها كنموذج أساسي للتأصيل القرآني لإعلام الطفل.

يقول تعالى "**وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم**"[1].

---

[1] لقمان 13.

إن أول موضوع إعلامي يتناوله القرآن بخصوص الطفل هو ترسيخ العقيدة، خاصة وأنه قريب عهد بفطرة مسلمة ناصعة: ذلك أنه يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه.[1]

أمّا الإسلام فهو دين الفطرة وما على الآباء إلا التذكير بأمور العقيدة كي لا تطغى المستجدات الواقعية على تلك الفطرة فتحيد بها عن طريقها السليم الأول. من أحسن ما قيل في قول لقمان (يا بني) هو: "تصغير إشفاق ومحبة لا تصغير تحقير"[2].

فالقرآن الكريم يعلّم الآباء وهم يؤدّبون أبناءهم أن يكونوا رقيقي الحسّ، حتى يستميلوا الابن أو الطفل فيجيبهم فيما دعوه. كما جاء في قوله ـ عليه السلام ـ (لا تشرك بالله). أنه "...كان مسلما والنهي عن الشرك تحذير له عن صدوره منه في المستقبل..."[3].

هذا في حين يطلق الآباء اليوم العنان لأبنائهم يأخذون العلم عن الفضائيات الأجنبية على ما فيها من هدم العقيدة خاصة من خلال ما يعشقه الأطفال: وهي الرسوم المتحركة؛ والتي تشكّل أكبر نسبة من المواد المستوردة من الدول الأجنبية. وتقدّر بـــ: 20,70 بالمئة[4]. وهي تبثّ عبر القناة العربية، فما بالك بالفضائيات الأجنبية التي تخصّصت في هذا العنوان بالذات؟

وإذا كانت المؤاخذات قد وردت على التلفزيون العربي في إعلامه الموجّه

---

(1) معنى حديث رسول الله ﷺ الذي رواه البخاري عن أبي هريرة، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، ج 1، ص 456، مراجعة د/ ذيب البا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت 1987.

(2) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني عمود الألوسي، مج 7، ج21، ص84، دار الفكر بيروت 1978م.

(3) المرجع نفسه، مج 7، ج 21، ص 85.

(4) انظر الإعلام المرئي الموجه للطفل العربي ـ دراسة ميدانية تحليلية ـ د/ عاطف عدلي العبد، ص 79، دار الفكر العربي القاهرة، مصر د. ت.

للطفل[1]، فكيف يكون الأمر حال تعلّقه بكل مرئي مباح؟

عودة إلى مضمون موعظة لقمان الحكيم. يقول تعالى: "**ووصّينا الإنسان بوالديه حملته أمّه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتّبع سبيل من أناب إليّ ثمّ إليّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون**"[2]. لمّا يسلّم الطفل بتوحيد الله فإنه يسلّم ضمنا بطاعته وإتيان أوامره وترك نواهيه.

من هذه الأوامر الأصلية التي يتوجّب على الطفل الامتثال لها هي: طاعة والديه "**وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا...**".[3]

حتى وإن كانا على غير الإسلام؛ حيث تبقى دائما نقطة مشتركة بينهما أي بين الابن المسلم والوالدين غير المسلمين: وهو فضل الولادة والتربية، وهنا تكون العشرة بالمعروف دون طاعتهما في معصية الله.

بعد علاقة الطفل بربه فعلاقته بوالديه تأتي علاقته مع نفسه ومع الآخرين من خلال مجموعة أخلاق وآداب حيث يتوجّب عليه الإدراك أنه ما من قول أو فعل أو حركة إلا ترتّب عنها جزاء أو عقاب بحسبها. فهي لا تخفى عليه تعالى وهو لطيف في محاسبتها عليها خبير بها جميعا.

على هذا الأساس يكون العمل "**يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إنّ ذلك من عزم الأمور، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحبّ كل مختال فخور، واقصد في مشيك واغضض من صوتك إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير**"[4].

---

[1] انظر المرجع نفسه، ص 78.

[2] لقمان 14 وبعد.

[3] الإسراء 23.

[4] لقمان : 17 إلى 19.

هذا هو الطفل الذي يريد القرآن إعداده للمستقبل فهو عنصر فعال في مجتمعه على الرغم من صغر سنه وليس عابثا بوقته وأفعاله آبها عن قضايا الإنسانية فرحا بصغره مغرورا بقواه.

ولم يظهر اعتناء القرآن بتربية الطفل من خلال موعظة لقمان لابنه فحسب، بل تعداها إلى ما هو أوسع من ذلك بكثير؛ حيث اعتنى بخيال الطفل وتوسيع مداركه من خلال مجموعة القصص القرآني مما يشدّ انتباهه فأورد من قصص الحيوان ما يخدم حبه للاكتشاف ومن قصص الأنبياء ما يروي ظمأه إلى الأدب بأنواعه فهو يعيش المحنة العقدية مع إبراهيم ـ عليه السلام ـ ثم يعيش الوحدة في صحراء نجد مع إسماعيل عليه السلام وقصة الذبح والفداء.

ويعيش الصراع الاجتماعي مع بنات لوط ـ عليه السلام ـ والقصة المعجزة في ميلاد عيسى ـ عليه السلام ـ وهو يكلّم الناس في المهد ويدعو إلى التوحيد.

كما يعيش الاستبداد السياسي من خلال قصة فرعون مع بني إسرائيل،كما يبحر مع موسى في التابوت ليصل قصر الفرعون ويربو بين أحضان زوجه وما إلى ذلك مما يعتبر وسائل إعلامية فعالة وإيجابية.

هذا على حين نجد الخيال اليوم فيما يبثّ عبر قنوات الإعلام المسموعة والمرئية وما إليها تكاد تثبّت الطفل فيصير ناقلا جامدا لا يتفاعل مع ما يجد إلا سلبا. يقول أحد المفكرين الغربيين في مؤتمر "نيس" العالمي للكتاب : "خيال الأطفال أصيب بالمرض بسبب الإعلانات، وحلقات الإذاعة والتلفزيون ومغامرات السوبرمان وبسبب تزييف الكبار للخيال وتحويله إلى الإثارة".[1]

كما يشكّل القرآن أداة إعلامية مهمة في مجال السلوك بشكل عام بما يورده من أحكام فوهية تتصل بشكل أو بآخر بالطفل. ومن بين تلك الأحكام.

---

[1] نقلا عن أدب الأطفال في ضوء الإسلام، د/نجيب الكيلاني ص124، مؤسسة الإسراء والتوزيع، الجزائر، ط2، 1991.

1_ أحكام الاستئذان

كان الطفل الذي لم يبلغ الحلم معنيا بالاستئذان حال دخوله بيت والديه أو غيره على الأقل ثلاث مرات في أوقات مختلفة تشترك جميعا في فكرة واحدة هي وضع الثياب. يقول تعالى: "**يأيّها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهنّ طوّافون عليكم...**"[1].

وما ذلك إلا لتهذيب الطفل وتعريفه بحدود ومجال التعاطي مع الكبار. فينشأ غاضا لبصره عن العورات التي تتنوّع؛ حيث يكون بإمكانه الاطّلاع على بعضها في حدود: "... **أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النّساء...**"[2]. وهي حدود العورة المخففة لا المغلّظة.

وهو الحديث الذي يحتّم بالضرورة تناول موضوع "التربية الجنسية للطفل" وطريقة التعامل القرآني معه.

2_ التربية الجنسية

من المعلوم أن القرآن أورد آيات كثيرة تتحدّث عن الأمور الجنسية بمختلف أشكالها ممّا يشكّل مادة معرفية وإعلامية واسعة، وهي موضوعات في متناول كل قارئ للقرآن بما في ذلك الطفل. وهو ما يجعل الأمر مشروعا في حق الطفل. فكيف يكون مجال إعلامه بذلك؟

تناول القرآن مراحل خلق الإنسان بدءا بالطين إلى الماء المهين إلى الإخراج طفلا. وما إلى ذلك؛ حيث يعطيه صورة متكاملة مختصرة عن خلق الإنسان. وهي معلومة صحيحة تخالف جذريا فرضيات خلق الإنسان من القرد. وهي الفرضيات

---

[1] النور 58.

[2] النور 31.

التي تروّج لها الأفلام والأشرطة العلمية اليوم. بل وحتى الرسوم المتحرّكة الموجّهة للأطفال.

أمّا عن الزوجية في ذاتها فهي طبيعة الخلق كلّه؛ فقد خلق الله تعالى من كل شيء زوجين. وعبّرنا عنه بالذكر والأنثى تارة وبالسالب والموجب تارة أخرى وهكذا...

كما تعلّقت أحكام فقهية بكاملها بعلامة جنسية؛ وكانت أهمّ شرط للتكليف: ألا وهي "البلوغ". فبغضّ النظر عن سنّه، ينحصر في فترة الطفولة. يقول تعالى: "...**وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم...**"[1].

ولنا العبرة في مستوى التربية الجنسية التي كانت عليها البتول ـ عليها السلام ـ وهي المتحنّفة العابدة الزاهدة؛ حيث تجادل الملك في أمر الغلام الذي تبشّر به "**قالت ربّ أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر...**"[2].

وهو ما يجعل المسلم انطلاقا من القرآن يتعامل مع الموضوع بشيء من المرونة. بعيدا عن الهالة والسرّية التي طبع بها[3]. مع التسجيل هنا أن القرآن وهو يتعامل مع الأمور الجنسية مبيّنا لبعض أحكامها لم يكن بذيئا ولا فاضحا. بل كان يحوط المعلومة بأدب رفيع انطلاقا من اللفظ الذي يأتي مستعارا أو فيه كناية فيكون مفيدا للمعنى في حدود بيان ذلك الحكم. ولا أدلّ على ذلك من آية الملامسة "...**أو لامستم النساء...**"[4] التي نتج عن لفظها اختلاف فقهي بيّن في وجوب الوضوء عقبه أو عدمه.

---

(1) النور 59.

(2) آل عمران 47.

(3) انظر التربية الجنسية للطفل في الإسلام، مجلة "الأفق"، ص 19، طلبة قسم الدعوة والإعلام والاتصال، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 1، جوان 2002.

(4) المائدة 6.

بل وحتى قصة المراودة في سورة يوسف لم تكن لتحرّك شهوة الجنس لدى القارئ بقدر ما تحرّك فيه الشعور بالنفور من هذا السلوك الشاذّ الذي كان من امرأة العزيز.

هذا في الوقت الذي ينفتح فيه مجتمعنا في عصر الأنترنت على المواقع الجنسية الفاضحة؛ حيث يشكّل جمهورها من الأطفال أكبر نسبة، فيعوّل عليهم في جذب زوار جدد من الكبار لتلك المواقع ممّا يذرّ أرباحا طائلة على أصحاب تلك المقاهي.[1]

وهذا كلّه يحدث في غياب الرقابة الأبوية على الأطفال، بل وعدم تسليحهم بتربية جنسية ذات مرجعية إسلامية تكون مانعا حصينا لهم أمام تفشي هذا النوع من الإعلام. وهيهات لجلّ الآباء أن يقوم بذلك وهو الذي يقضي معظم ليله يسترق النظر في الفضائيات اللاأخلاقية على مرآى من أبنائه.

هذا عن النقطة الأولى، أمّا النقطة الثانية فهي:

3ـ التربية الديمقراطية للطفل

يتعلم الطفل من خلال قصص القرآن وما تعلق منها بالطفل خاصة أن له الحق في إعطاء أو إبداء الرأي انطلاقا من الأسرة. والثنائية أب ـ ابن ليست علاقة قهر واستبداد من الأب وسمع وطاعة من الطفل بل هي علاقة تفاعل إيجابي تجعل الطفل ـ مستقبلا ـ مواطنا صالحا يبدي رأيه السياسي بروح المسؤولية والرؤية السديدة.

أظهر القرآن هذا الأمر في قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو يتحدث إلى ابنه في أمر ما كان من اللازم في عرف الناس أن يطلعه عليه. "**فلمّا بلغ معه السعي قال يا بنيّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى...**"[2]

---

[1] انظر الأنترنت رب الأسرة الجديد، مجلة "الأسرة"، ص 25، عدد 111، جمادى الآخرة 1423.

[2] الصافات 102.

فالتشاور مع الابن كان في وحي، فكيف بباقي الأمور التي هي من وحي البشر؟

هذا في الوقت الذي يعاني فيه الطفل شدّة من الآباء في العالم العربي بشكل عام مما يجعل معظمهم يغادر بيته إلى الطرقات وسبل الفساد هروبا من الضرب والقهر والشتم وسوء المعاملة.

ولم يكتف القرآن بالتعامل مع الطفل كجمهور لمادته الإعلامية؛ إذ هو يقرأها يحفظها ويفهم بعض معانيها، بل تعداه إلى أبعد من ذلك بحيث أورد كلمة الطفل أو الغلام أو الابن أو الولد بمختلف اشتقاقاتها زيادة في لفت الطفل إلى مضمونه. وهو ورود ليس بالسطحي بل ورود جوهري في مواضيع مختلفة تعلّق بعضها بمراحل الخلق للتدليل على إمكان البعث "**يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة لنبيّن لكم ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى ثمّ نخرجكم طفلا ثمّ لتبلغوا أشدّكم...**"[1].

وتعليق البعض الآخر بمعجزات بعض الرسل "**قال ربّ أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا**"[2].

وتعلّق الآخر ببعض الأحكام الفقهية "... **أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء...** "[3].

فكان عدد الألفاظ الواردة في القرآن في "طفل" بمختلف تصاريفها واشتقاقاتها أربعا. النور 31 الحج 5 غافر 67 النور 59.

---

[1] الحج 5.

[2] مريم 8.

[3] النور 31.

وجاء لفظ "غلام" بمختلف اشتقاقه ثلاث عشرة مرة[1] كان أهمها غلمان الجنة "**ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون..**"[2].

كما جاء في القرآن أيضا لفظ "ولد" ويصدق على المولود عموما وإن لم يكن طفلا؛ حيث ورد ستا وخمسين مرة : 56 أهمّها تلك السياقات في مجال نفي الولد عن الله تعالى، وبعده موضوع المواريث.

أمّا كلمة "ابن" والتي لا تعني بالضرورة أيضا الطفل فقد جاءت في عدد معتبر من الآيات أهمّها: ما قرنه القرآن بالمال للامتنان على الإنسان والتنويه بفضل هذه الذرّية: "**المال والبنون زينة الحياة الدنيا...**"[3].

بعد هذا التفصيل ، يمكن إجمال القول في موضوع التأصيل القرآني لإعلام الطفل في نقاط، هي على التوالي:

1 ـ القرآن كلّه يشكّل مادة إعلامية موجّهة للطفل بشكل مباشر أو غير مباشر عن طريق الكبير المكلّف القائم على أمره.

2 ـ يخاطب القرآن الطفل من خلال الوالدين لتبيين بعض الأحكام الفقهية التي لها علاقة بسلوك الطفل ومعاملاته المختلفة.

3 ـ يلفت القرآن انتباه الأولياء إلى مسألة تنشئة الطفل على العقيدة السليمة.

4 ـ يرقى القرآن بذوق الطفل الأدبي من خلال القصة القرآنية والمثل وما إليها دون إفساد مخيّلته؛ فهو يعطيه حقائق في أسلوب سهل وواضح عبر الحوار أو الجدل وغيره خاصة ضمن قصص الأنبياء.

---

[1] انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص640، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط4، 1997م.

[2] الطور 24.

[3] الشعراء 88.

5 ـ يربي القرآن الطفل تربية جنسية واعية ومهذّبة بما يتّفق مع مستواه الفكري والعقلي. فلا يضطرب الطفل ويشذّ؛ إذ لا صور فاضحة ولا عبارات مهيّجة حول تلك العلاقة الطبيعية.

6 ـ تأخذ المادة الإعلامية في القرآن بيد الطفل ليربو على الأخلاق الحميدة والعقيدة السليمة فيكون مؤهّلا لخلافة الله في أرضه عند التكليف.

من هذه الأصول يمكن لأصحاب الاختصاص في العالم العربي والإسلامي أن ينهضوا بإعلام الطفل من خلال القصة والمسرحية والأنشودة والفيلم القصير والطويل والأقراص المضغوطة وDVD. مع وجوب الرقابة على الطفل في جميع تلك الوسائل الإعلامية خاصة الصحافة الصفراء والأنترنت كيلا يحيد عن تلك الأصول. وبالتالي يؤدي الرسالة المنوطة به على أحسن وجه ويتحدى غول العولمة الكاسح، بل ويغزوها في عقر دارها.